التحية التاسعة:

تحت عنوان: **(تحية إلى الأستاذ الدكتور حسّان حلاّق)**

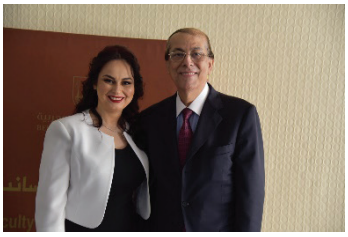

بقلم الدكتورة: ليلى رامز أبو شقرا

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

أستاذة تعليم ثانوي في ثانوية زهية سلمان الرسمية المختلطة

الأستاذ الدكتور حسّان حلاّق...

ظالمة هذه الحياة التي تغيّب في طيّاتها منبعًا نستمدُّ منه الحياة الحقَّة، حياة الوعي والفكر والمعرفة والوفاء والتعاون والتواضع والصدق...

ظالمة هي هذه الحياة عندما تحضن الثريا في ثراها وهي لا تزال متألّقة في كبد السماء...

ظالمة هذه الحياة عندما لا تسمح لك بوداع أخير يخنقه الأمل بالبقاء ويقصيه ألم الواقع...

ظالمة هي هذه الحياة التي تُبعد الشبع عن نفوس عطشى لكلام ثمين، لدُررٍ تنساب كمياه مطر يروي الصحراء فإذا بها رياضاً وحدائق وبساتين...

ظالمة هذه الحياة عندما تفرض إرادتها وتُخرسُ في ذاتها صدى نجاتك ومنبع جهادك وغاية اجتهادك...

ظالمة أنتِ عندما اخترتِ واحة خير كثير لم تزل هي الفجر الدافي في كلِّ ليل صقيع...

ظالمة أنتِ عندما صادرتِ منّا الإرادة بالفراق، ولم تسألي القلب عن قلبٍ يسكُنُ فيه...

ظالمةٌ أنتِ عندما قضيتِ علينا بذنب عدم ردّ الجميل...

لم يكنْ من حجبتِ بصرنا عنه مجرّد إنسان، بل كان فيه من الأنبياء الكثير...

فمنذ اللقاء الأول في السنة الجامعية الثانية في جامعة بيروت العربية، لم يدخل القاعة كأستاذ لمادة التاريخ فحسب، بل ومع خطوته الأولى، أصبح ملهم الفكر وأنشودة التفكير! كياسته رقيٌّ ومهابة، كلامه للروح غذاء ودين، نقدُه معلّم ومقصُّ تشذيب خبير، شرحه كلوحة إبداع هبطت من ذاك المحل الأرفع، ثقافته كبحر يحتويك، حديثه متعة كروايات جدتي التي كنتُ أصلّي ألاَّ تنتهي ولو علا صياحُ الديك...

الأستاذ الدكتور حسّان حلاّق...

لم أتخيّل يومًا أنْ أصحو على وجه هذه الأرض وأنت غير قريب...عزائي الوحيد ربّما أنني لم أبخل يومًا بالتعبير لك عن عرفاني وتقديري ومحبتي ومكانتك في قلبي وعقلي وسيرتي ومسيري... لكنَّ هذا العزاء لا يكفي إلاَّ ليريح وجعَ قلبي والضمير...

تعرّفتُ إليك أستاذًا، ثمَّ أصبحتَ أبي وأخي وصديقي ومرشدي وناصحي وسندي؛ أنت الشيخُ وأنا لك المُريد...

ساعدتني على تجاوز أصعب لحظات حياتي، ولم تقبل بانهزامي ولا تراجعي، وأصررتَ عليَّ أنْ أتابع في كتابة رسالة الماجستير، ومن ثمَّ الدكتوراه، وكنتَ دائمًا تمكّن الأمل في ذاتي... وكنتَ تؤمن بي أكثر من إيماني بنفسي... وها أنا اليوم في المكان الذي ساعدتني لكي أصل إليه... في المكان الذي أنرت إليه دربي، وسلّحتني بعدةٍ تعبِّد فيه الطريق... والآن أسأل: كيف سيكون غدي والمسير؟ كيف سأمضي إلى غدٍ لن أتمكّن من مشاركتك إنجازاته؟ أو سؤالك عن رأيك فيه؟

لا تنفصل كلماتي هنا عن دمعي يسيل من القلب، من وجع حزنٍ يعرف أنَّه لا يبتسم إلاَّ بمرآك، من ألمِ فراق يعي أنَّ الموتَ حقّ لكنَّه لا يرتضيه...

أتعلم أستاذي العزيز؟ عندما تكون أنت موضع الحديث تحضر في جوّانيتي صوتًا وصورة، فذاكرتي قد اختزنَتْ في أثيرها وجودَك كنوزًا ثمينة... مشيتك، جلستك، لهجتك البيروتية التي شرحت لي يومًا عن فوارقها الموجودة بين منطقة البسطا وطريق الجديدة وغيرها من مناطق بيروت العتيقة أو «بيريت»؛ أسلوبك في الشرح وانسياب المعلومات متدافعة بانتظام وهدوء واتساق كفراشة تتنقّل من زهرة إلى زهرة مراعية منطق الفلاسفة

وحجج المتكلّمين؛ استفزازك لي أحيانًا لكي تدفعني إلى البحث فلا أكتفي بالنقل وبفتوى من أفتى وتصريح من صرّح وإقرار من أقرَّ؛ تواضعك الذي لا يجهِّلني وكل من أمامك وأنت العالِم العليم؛ أمانتك العلمية التي ألقيتَها على كتفيَّ عباءة أتدثَّر بها في كلِّ ما أخط وأسطر وأهمس وأُسرُّ؛ أخلاقك التي لا تليق إلاَّ بمن ارتقى حدَّ الإنسانية؛ تواضعك، صدقك، صداقتك، ابتسامتك، سكّر النبات...

عوّدتنا أستاذي الكريم أنْ نأخذ قطعة سكر نبات كلّما أتينا لزيارتك في مكتبك للسلام عليك والحديث معك. دكتور محمد القوزي يجلس على مكتبه، وأنت على مكتبك وأمامك هذا الوعاء الذي ملأته بقطع سكر النبات وأحيانًا بالشوكولا والسكاكر. ويومًا، عندما سألتك عن سكر النبات الذي لا أميل إليه أجبتني بابتسامة صغيرة لم تستهزئ بسؤالي، وبصوتك الهادئ: «هو مفيد للحنجرة، وطعمه طيب... جرّبي قطعة»، ومنذ ذاك اليوم لم يعد بيتي يخلو من سكر النبات... سكر النبات الذي تعيدني كلُّ قطعة من قطعه إلى جامعة بيروت العربية، مبنى رفيق الحريري، الطابق التاسع، مكتب الدكتور حسّان حلاّق.

أتعرف أستاذي الكريم، يحضرني الآن سؤالك لي عمَّا أشرب عندما آتي لزيارتك في المكتب، «قهوة أو شاي أو زهورات؟» والجواب بطبيعة الحال يكون «شكرًا، فأنا لا أشرب سوى المتة»... فتبتسم «طيب جربي الزهورات، أو شاي أخضر، مفيدين وما فيهن كافيين» وبطبيعة الحال أقبل أحيانًا بالزهورات، واليانسون إذا توفّر.

كثيرة هي الذكريات التي أصبحت لي عادة وابتسامة وحياة!

منذ أنْ كنت طالبة وحتى بعد التخرج على مختلف مراحله من الإجازة إلى الدكتوراه، لم تشْعرني يومًا بأني أنظر إليك في عليائك من أدنى، بل عاملتني معاملة الموازي قيد الإنشاء، لتواضعك وثقتك بمن أنت وما أنت، لجرأة لا تخشى أنْ يتخطّاها تلميذ بسعيه أو علمه. ومنك تعلّمت أنّني لا أكون أستاذًا ناجحًا إلاَّ إذا كنتُ أمشي وطلابي يدًا بيد، لا أتقدّمهم مخافة أن يفشلوا من اللحاق بي، ولا أتأخر عنهم مخافة أنْ أَغدر عندها بما أحمل من ضمير... فأنت، مؤرخ بيروت المحروسة، الأستاذ الدكتور حسّان حلاّق بكل إنجازاته ومؤلفاته، لم تتكبّر يومًا، ولم تكن لي ولطلابك إلاَّ سندًا صدوقًا صادقًا على خلاف الكثيرين ممن عرفناهم أساتذة على مرّ السنوات...

لم أخفِ عليك أنني أطمح أنْ أصل إليك عقلاً ومعرفةً وحكمة وثقافة...كنت تضحك دائمًا عندما أقول لك أني أتمنى أن أصبح مثلك، بكل ما فيك من صفات، وبعلمك، وتواضعك، وإنسانيتك.

ولا أزال أذكر عندما قلتُ لك في السنة الأولى التحضيرية في الدكتوراه، إنني أتمنّى لو كان هناك شريحة إلكترونية معيّنة أتمكّن من وضعها في رأسك فتنسخ كلَّ ما في هذا العقل من ذكاء ومعلومات وإبداع... ضحكتَ عندها، وبلهجة بيروتية مميزة وصوت هادئ وابتسامة رضًى وتعجّب، قلتَ «بعدك مصرّة يعني...»

نعم، أنا مصرَّة... وضعتُك بعلمك وثقافتك ومعرفتك نصب عينيَّ، وشرعتُ المسير وما تلكَّأتُ، بل كنتَ أنتَ الصوت الذي يؤنبني عند التقصير أو الرغبة بالتسليم عند التعب... صوتك الذي طالما ترافق في أعماقي وصوت أمي. وبعد رحيلها، كنتَ أنت السند والصوت الذي غمرني في اليقظة وفي الضمير وحتى في الحُلمِ كنغمِ أمّي الآتي من بعيد...

واليوم، بعد أنْ أصبحت مسافرًا في ذلك الرحيل، يحضرني صوتك وابتسامتك ونصائحك مبللة بدمع نبض حادٍ للعيس وحيد...

أستاذي العزيز،

لم أتخيّل يومًا أنْ أمرَّ على جامعتي، جامعة بيروت العربية، ولا أمرُّ عليك لألقي التحية وأتحدّث معك... ولا أستطيع أنْ أتصور كيف سيكون هذا اللقاء بيني وبينها وقد خلتْ منك... من دونك ليست هي جامعتي التي عرفت... من دونك لن تكون أبدًا هي جامعتي التي عرفت، فجدرانها سيعتريها الصقيع ولو في فصل الربيع، وسيرتسم الخريف أبدًا في حدائقها الدائمة الاخضرار، وسينكَّس التاريخُ وقد يُتِّمَ قلمُ التأريخ...

لم تكن مؤرخ بيروت المحروسة فحسب، فأنتَ تاريخ كلّ من تتلمذ على يديك، وكان لك من المريدين. لذلك، أنتَ لي تاريخٌ، وأنتَ لي تاريخي وعماد ما حملَه لي المستقبل الذي أصبح ماضيًا اليوم، وأفْقُ المستقبل الآتي في كلِّ غد قريب...

«أوقعني الله على كتاب...»، «أوقعني الله على...»، هذه العبارة – عبارتك التي ترافق يقظتي ولا وعيي في سعي سفيني في يمِّ التنقيب الهادر والجري خلف الكلمة، والتي بها يُعرف أنَّ الإله يرعاك ويجزي فَلاحَك وعَجَاجك...

أستاذي الكريم،

ما بخلتَ عليّ بالنصيحة يومًا، ولا بوقتك، ولا بعلمك، ولا بإنسانيتك، لذا لم أبخل يومًا باجتهادي، وبمحبتي لك، وتقديري، ولم أتكاسل عن السير على هدي خطاك.

لم تبخل بفرحِك لإنجاز أُحقِّقه، ولم أتوانَ عن مشاركتك فرح كل الإنجازات، حتى إنجازي الأخير الذي كنتَ أنتَ له الأمل والمُزْنَ والسبيل.

رحلتَ، رحلْتَ من دون أنْ يتسنى لك أنْ تكرّمه بتوقيع؛ رحلتَ في وقت لم أستعد فيه لهذا الرحيل، ولكنْ ما أتمناه أنْ تكون رحلت جسدًا وروحك راضية عنّي، وأنْ أكون في ما أنجزته موضع أمل لم يخب، أنْ أكون أنا موضع أمل لم يخبْ...

أستاذي، الأستاذ الدكتور حسّان حلاّق،

فيك نور من إله، وفيك من الأنبياء الكثير؛

أنتَ مَن يَهدي ومن يُتَّبع،

أنتَ مَن يُمدح ومن يُحتذى،

أنتَ مَن نعزُّ به ويُعز،

أنت الجالأكبرُ ضدَّ كلِّ جهلٍ، وأنت النبراس، وأنت العلَمُ، وأنت النشيد، وأنتَ الحسّان، وأنت المحبة، وأنت التواضع، وأنتَ الفيصَلُ، وأنتَ العجَاج[1]!

أنت مَن يُرثى اليومَ وأنتَ من يُفتقد،

ونحن، نحنُ اليتامى، والزمان والقلم!

رحمك الله عميدًا للإنسانية والقيم والأخلاق والوفاء،

رحمك الله مؤرّخًا عدلاً لبيروت المحروسة،

رحمك الله أستاذًا ومنارة للعلم والمعرفة والثقافة،

رحمك الله عمادًا وركنًا أساسًا لجامعة بيروت العربية،

رحمك الله أبًا وصديقًا ومعلّمًا حفرتَ روحَكَ ونهجَكَ في قلوبنا لتبقى فيها حيًا مدى ما في قلوبنا من نبض...

(1) العجاج: غبار الخيل العائدة من المعركة منتصرة، ومن دون «منتصرة» لا يكون الغبار عجاجًا.